# شكسبير ..
# وفنون النسج العربي

الدكتور ضياء الجبوري

اباغـو : ألم يحدث لك ياسيدي ان رأيت في يـد زوجتـك منديلا مزركشا بحبات التوت الارضي ؟

عطيـل : رأيته طبعا • واعرفه جيدا • فأنا الذي اهديتـه لها • بل هو اول هدية مني اليها •

★ ★

تعرض شكسبير لهجمات بعض النقاد وانتقاداتهم اللاذعـة لفرط اهتمامه بالمنديل الحريري الذي يهديه ( المغربي ) لزوجتـه ( دزدمونة ) في مأساة ( عطيل ) • ويتجلى هذا الاهتمام بتكرار ذكر المنديل وبكثرة الاشارات اليه وبأهمية الدور الذي اعطاه المؤلـف للمنديل في تصعيد عملية البناء المسرحي بشكل عام وفي الوصول الى حل العقدة في نهاية المأسـاة •

ومن اولئك الذين تصدوا لشكسـبير بالنقـد والتقريـع (Thomas Rymer) وهو احد مشاهير النقاد الانجليز فـي نهاية القرن السابع عشر ( ١٦٤١ ـ ١٧١٣ ) وما زالت صرخته التـي اطلقها في وجه ( مأساة عطيل ) تدوي في عالم النقد « هل يسـتحق المنديل كل هذا الضجيج وكل هذا التعس والشقاء والتكرار المجوج؟ لم لم يطلق شكسبير اسم ( مأساة المنديـل ) علـى مسـرحيته هـذه ؟ »(١)

وفي هذا القول الكثير من التجني على ( شكسبير ) وعلى ( مسرحية عطيل ) بالذات • فالواقع ان المشاهد لايشعر مطلقا كما يدعى (Rymer) بأن ( شكسبير ) قد قام بحشر المنديل في الحبكة المسرحية حشرا او انه استنفذ صبر المشاهدين بارهاقهم في الاستماع الى تفصيلات تخرج عن اطار الحدث المسرحي •

وكل مانعرف عن هذا المنديل انه كان قطعة صغيرة من الحرير لاتكفي لربطهاحول الرأس وانهاكانت مزركشة بحبات التوت الارضي وان عجوزا مصرية كانت قد حاكته واهدته الى ام عطيل ، وان هذه الاخيرة بدورها قد وهبته لابنها ساعة وفاتها وحذرته من ضياعه او تلفه اذ ان فقدانه يجلب شقاء مابعده من شقاء • هذا باختصارهو جل مانعرفه عن هذا المنديل الذي ملأ الدنيا وشغل الناس •

على ان المنديل كان تحفة فنية رائعة تبهر بجمالها ورونقها كل من يراها • فلقد اعجب به ( اياغو ) اعجابا شديدا جعله يطمح في سرقته « مئات المرات » على حد تعبير زوجته ( اميليا ) وعندما عثر عليه ( كاسيو ) مساعد القائد المغربي في قبرص هرع الى عشيقته ( بيانكا ) متوسلا اليها ان تقوم بحياكة وتطريز منديل مشابه له باقصى سرعة قبل ان يقوم صاحب المنديل بالبحث عنه واسترجاعه وعند ذلك تفوت الفرصة • اما ( دزدمونة ) فانها كانت تعتز به دوما « تقبله تارة وتناجيه تارة اخرى » • ومن هذا ومثله نخلص الى ان صانع المنديل هذا لابد وان يكون على قدر كبير من المهارة والخبرة والفن •

والسوأل الذي يطرح نفسه الان هو ماالذي حدا بشكسبير الى ان يختار منشأ شرقيا لهذا المنديل وان يبين ان اليد التي صنعته كانت عربية بل ومصرية على وجه التحديد ؟

وللاجابة على هذا التساؤل ، قد يكون من المناسب ان نذكر ان ( شكسبير ) لم يكن اول اديب انكليزي يعترف بمهارة العرب في فنون الحياكة والنسج ، وان ــ معاصريه من الشعراء والكتاب كانوا

يظهرون اعجابا منقطع النظير كأسلافهم الذين كثيرا ماتغنوا بجمال المنسوجات الشرقية وسحرها • ومن فرط اعجاب الشعراء السابقين بهذا اللون من الفنون العربية انهم كانوا احيانا يقحمون قطعا وصفية طويلة تصور بدقة التصاميم والنقوش التي توشي الانسجةوالحرائر•

وما من شك في ان هذا الاعجاب الادبي لفنون النسج والتطريز العربيين انما كان يعكس بشكل واضح السمعة الطيبة التي كانت المصنوعات العربية تتمتع بها في القرون الوسطى وعصر النهضة •ومن احدى دلائل هذه السمعة الطيبة ان الانكليز والاوربيين عموما كانوا يتفاخرون بالانسجة العربية التي كانو يرتدونها او يعرضونها في حفلات البلاط والتتويج والمناسبات الهامة كنزالات المبارزة الشهيرة والمهرجانات وزواج الاكابر •(٢)

واعظم شاهد على اهتمام الانكليز القدامى بصناعة المنسوجات العربية يكمن في مفردات اللغة الانكليزية نفسها • فنظرة خاطفة على الكلمات المستعملة في وصف الاقمشة والانسجة عموما توضح ان هناك عددا كبيرا من الكمات العربية كان الانكليز قد اقتبسوها واضافوها الى لغتهم بعد تحوير بسيط في اللفظ •

والامثلة على ذلك كثيرة : فالقماش المعروف في انكلترا ايام ( شكسبير ) وقبلها بـ (fustian) ماهو الا القماش المستورد من مدينة ( الفسطاط ) المصرية • والنسيج الذي اطلق عليه الانكليز لفظة (damsak) كان مصدره الاساسي ( دمشق ) • اما القماش الذي كانت ( الموصل ) تصدره فكان يعرف بـ (muslin) و ( بغداد ) التي كانت تعرف في انكلترا واوربا عموما باسم (Baldac) او (Baudak) فانها كانت مصدر اعظم انواع الحرير الموشى بالذهب والاحجار الكريمة والذي كانالانكليز يسمونه بـ (baudekin) اي ( البغدادي ) •

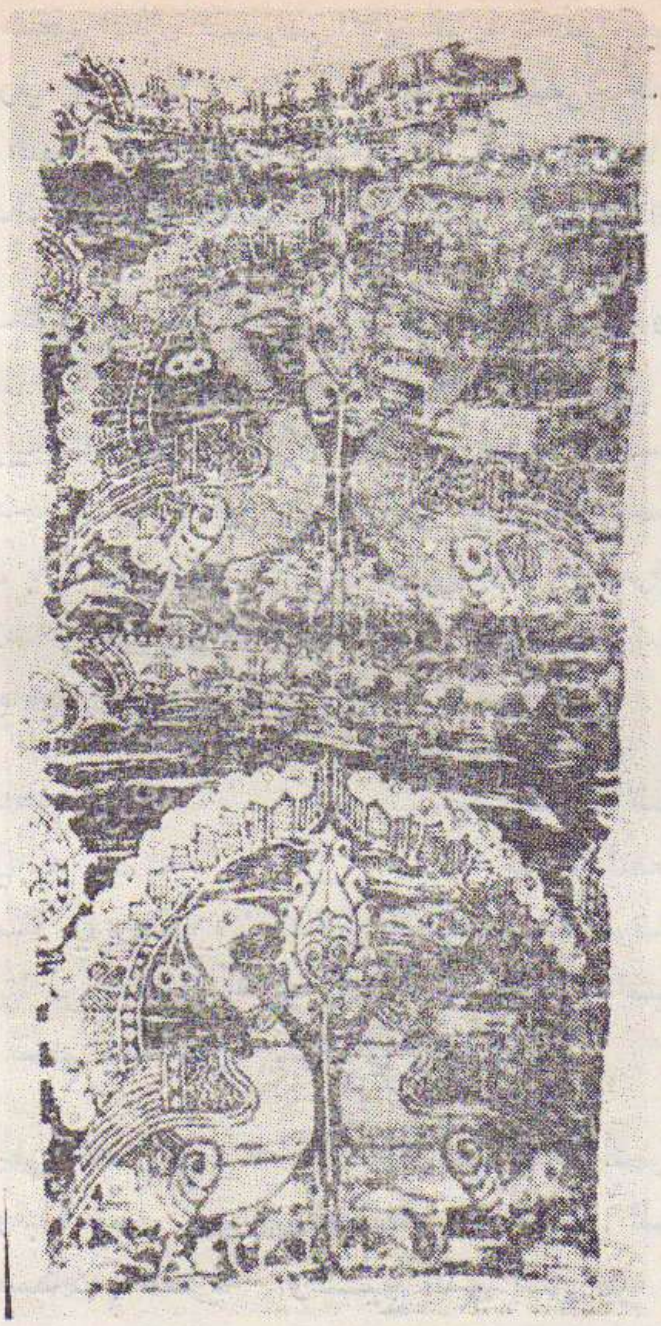

قطعة من الحرير المنسوج في الاندلس يعود تاريخها الى القـــرن الثانـي عشـــر .
يلاحظ القاريء الدقة في النقوش والخطوط الكوفية .

وللمزيد من الامثلة نـذكر لفظـة (granadine) التي اخذها الانكليز عن اللفظة العربية ( غرناطي ) أي الحرير المصنوع في **( غرناطة )** و (camlet) ( الخملة ـ الخميلة )و (tafetta)

( التفتة ) و (atlas) ( أطلس ) و (Satin) ( الزيتوني) و (tabby) وهو القماش الذي كان يصنع في الاصل في حي ( العتابية ) في بغداد . اما اصل كلمة (saracenette) التي كانت تطلق على احد انواع الحرير الفاخر فهو(Saracen) التي كانت تعني الشرقي او المسلم حتى الى مابعد عصر ( شكسبير )[٣] .

ولذلك فمن المستبعد ان يكون اختيار ( شكسبير ) للمنشأ العربي لمنديله هذا قد تم بشكل اعتباطي او عفوي . ولقطع الشك فما علينا الا ان نقارن ماقاله ( شكسبير ) عن اصل المنديل باقوال الكاتب الايطالي ( سنثيو ) (Cinthio) الذي اقتبس ( شكسبير ) قصة المسرحية عنه . فوصف المنديل لدى ( سنثيو ) مقتضب غاية الاقتضاب . اذ كل مايقوله في وصف المنديل انه كان « مزركشا على الطريقة المغربية وان شغف ( دزدمونة ) به لايقل عن شغف ( عطيل ) » .[٤] ومن الواضح ان قول ( سنثيو ) بأن المنديل « مزركش بالطريقة المغربية » لايحدد منشأ المنديل ولا يذكر هوية صانعه او البلد الذي ورد منه .

اما ( شكسبير ) فانه يؤكد على لسان بطله المغربي ان « المنديل اعطته امرأة من اهل مصر لوالدتي» . وبعد هذا التحديد الدقيق لمنشأ المنديل يضيف ( شكسبير ) بعض التفاصيل عن صانعة المنديل هذه وعن الطريقة التي نسج فيها والخصائص الفائقة التي يتمتع بها.

ولنستمع الى عطيل يحدث زوجته عن المنديل وصانعته : —

« ان هذه المرأة كانت عرافة
تقرأ الغيب فأخبرت امي انها
طالما احتفظت بالمنديل ستظل متمتعة
بحب ابي ، ومتى فقدته او اعطته
لاحد فسيتحول قلب ابي

عنها ويكرهها بقدر ماكان متعلقا
بحبها • فاحتفظت امي بهذا المنديل
الى ان ادركها الاجل المحتوم ، وعند
احتضارها وهبته لي كي اهديه
الى زوجتي عندما اتزوج • وقد فعلت •
فيجب ان تحرصي على هذا المنديل
حرصك على انسان عينيك ،
ففقدانه يجلب التعاسة والهلاك •
••• واما شرانق الحرير التي نسج
منها فكانت فريدة في نوعها وأما
الاصباغ التي لونت زراكشه
فانها استخلصت من دم قلب عذراء
من عذارى مومياء المصريين القدامى •»(٥)

والسؤال الذي يطرح نفسه الان هو مدى صحة ادعاءات عطيل هذه • والذي لاريب فيه ان اضفاء ( عطيل ) تلك الخصائص السحرية الخارقة للمنديل كان ضرورة ملحة أملاها المأزق الذي وجد نفسه فيه فجأة • فبهذه الادعاءات الغريبة كان ( عطيل ) يحاول التستر على سورة الغضب بل نوبة الجنون التي اكتسحت اعماقه عندما ظن خاطئا ان زوجته قد اهدت هذا المنديل الى عشيقها المزعوم ( كاسيو ) كما اوهمه بذلك ( اياغو ) •

ولم يكن من السهل على ( عطيل ) ان يظهر امام زوجته بانه كان يرى في المنديل رمزا لعفتها وطهارتها وان اهداء المنديل لـ ( كاسيو ) كان يعني عنده اباحة جسدها له ، اذ ان مثل هذا الاقرار قد يعرضه لهزء الاخرين وسخريتهم • ولكي يجعل ( عطيل ) من ضياع المنديل مصابا جللا كان لزاما عليه ان يرفع من شأن المنديل وان يعظم قيمته امام زوجته البائسة التي اخذت ترتعد لسماعها هذه البدع المخيفة • وليس بخاف على احد ان التصرفات

الجنونية التي تميز بها سلوك البطل المغربي بعد اختفاء المنديل انما كان سببها الغيرة التي اعمت بصيرته ، وليس فقدان المنديل نفسه بغض النظر عن روعته او قيمته الجمالية .(٦)

على ان ادعاءات ( عطيل ) لم تكن مستساغة او ممكنة لو لم يكن منديله هذا مصنوعا في احدى بلدان الشرق كبلاد مصر مثلا التي كان ينظر معاصرو ( شكسبير ) اليها والى الشرق عموما على انها ارض الخيال والعجائب والغرائب . ولو كان المنديل من صنع محلي او مستورد من بلد اوربي مثل ( هولندا ) التي كانت من اكبر مصدري الاقمشة الى انكلترا واوربا ايام ( شكسبير ) لانكشف ماأضفاه ( عطيل ) على منديله من سحر خرافي وازدادت حيرة النظارة في تعلقه وتمسكه برقعة تافهة من قماش مألوف .

ويبدو ان هدف ( شكسبير ) كان ابعد من ذلك . فقد جعل المنديل بشكل غير مباشر جزء متمما لشخصية ( عطيل ) الغامضة وخلفيته الافريقية التي ظل كثير من جوانبها مبهما حتى لاقرب المقربين اليه . ومن خلال الربط بين العلاق الاسود ومنديله الشرقي العجيب ، ومن خلال الاهمية الهائلة سواء الرمزية منها ام المفتعلة التي يعلقها ( عطيل ) على هذا المنديل ، اصبح بامكان ( شكسبير) ايضا ان يلقي ضوء جديدا على نفسية البطل ودخيلته وان يحدد بعض ملامح شخصيته الغريبة .

---

(١) Thomas Rymer, A Short View of Tragedy (London, 1692), p. 135.

(٢) R.S. Lopez, "Silk Industry in the Byzantine Empire," *Speculum,* XX (1945), 29ff; E.W. Lane, *Arabian Society in the Middle Ages* (London 1883), pp. 116-17.

(٣) للمزيد من الامثلة ينظر الفصل الخاص باللغة العربية من كتاب :

Mary Serjeantson, *A History of Foreign Words in English* (London, 1935).

وكذلك المقالة القيمة التاليـة :

Walt Taylor, "Arabic Words in English," *Society for Pure English*, Tract 38 (1933), pp. 569 ff.

(٤) ينظر طبعة (W.W. Furness) التي تحوي ترجمـة القصة كاملة :

Novella VII, trans., J.E. Taylor (London, 1886), p. 336.

(٥) William Shakespeare, *Othello*, ed. Peter Alexander (London, 1951), Act III, Sc. iv, Ll 55 ff.

(٦) Eldred Jones, *Othello's Countrymen* (Oxford, 1965), p. 102.